صفحات من حياة أبي
الصفحة الرابعة والثمانون :
عودة دارنا المغتصبة !

قصة : د. سيد شعبان

تخيلوا بعد كل الذي سطرته؛ ظهر أن قابيل لم يكن واحدا بل امتد نسله وزاد وأربى حتى انسل منه ثعبان وحية رقطاء؛ عاش أبي ثلاثة وثمانين عاما، كد في أغلبها كما سطرت الصفحات السابقة، رويت عنه نوادره وعجائب حياته؛ في أغلب صفحات حياته تأريخ للحياة في ريف مصر، كان رجلا يغالب أمره بجهده وعرقه غير أن تلك الصفحة وجب أن تكتب بيانا للحقيقة وكشفا لزيف مدلس آلى على نفسه أن يسرق عرقه ويتنزع بالباطل داره التي درجنا بين جنباتها صغارا وشهدت سنوات عمرنا كبارا، غفلا من تدليس وثقة في غير موضعها؛ مضت أيامنا فإذا به وقد جالسته إثر دفن الطيب رضي الله عنه، نقسم تركته فتعمد أن يرجأ ذلك لحاجة في نفسه، تعلل بواه من عرف، ثم مضت الأيام الأربعون؛ فأخرج خبيئته التي دلسها ربع قرن ليدعي أن الدار له دون إخوته جميعا؛ نكص على عقبيه إذ باعها لصاحبته بالجنب؛ فكان طرد بالقوة الجبرية غير ملتمس لصلة رحم ولا أشفق على صغار كزغب القطا؛ التمست من بني عمومتي من يرده عن غيه فثنى عطفه ومال بجنبه؛ إذ أغراه بالباطل شيطانه الذي وسوس له؛ شب ضرام عداوة أذكاها أن يسكن فسله مكان أخويه، حادثة خشيت أن تعاد ثارتها في قوم عرفوا بالنزق وسفه الحلم؛ كتبت والقلم يتأبى علي إذ كنت أحفظ له الود فهاتفت من يثنيه عن باطله فيعود الرسول خاوي الوفاض؛ التجأنا إلى القضاء فاستدعى شاهدي العقد المدلس فأنكرا معرفة بمال وأقسما أن ذلك تدليس برأت منه ذمة الطيب رحمه الله.

حتى استعان بشاهدي زور ؛ رد الله كيدهما في نحرهما؛ قد تكون الواقعة معادة مكررة لكن صفحتنا سطرت بمداد من قهر أن تجد نفسك بلا دار تأويك سيما وأنت ضارب في فجاج الأرض؛ غيبت قسرا عنها ثم تجده يقهقه ساخرا ملء شدقيه؛ ماذا أقول:

أين داري؟

كنت أترنم مع وديع الصافي:

دار يا دار !

بكيتها كما لم يبك شاعر طلله ولاراث مدينته، إنها جذر أبي ومهدي الذي رضعت فيه لبن أمي؛ شهدت صبابتي؛ بها أنفاس جدتي الخضراء.

يشهد علي من يقرأ مقالتي تلك من عرف بها أو لم يعرف؛ أنني تحملت مكرها ما تنوء به الإبل الصعاب، لما تستنفد بعد حبال ود؛ ليعود الحق لأهله، أن تطعن في ظهرك ممن ظننته عصاك التي تتوكأ عليها؛ رأيت في عيون الصغار الحسرة وهم يغادرون دارهم تحت جنح ظلام ليل لم يأوهم فيه جار يفتح باب داره؛ وتقف صاحبته حية تتلوى غرورا أن أقتلوه؛ فانهالوا على أخيه بما امتلأت نفوسهم كراهية وغلا؛ أي نفس تلك بل أي شر أضمرا؛ لست غير سارد كتب صفحة سطرت وقائعها في كفر المنسي أبوقتب؛ سألت من ظننت فيه العدل أن يفصل فتلجلج وظلم بني العمومة أشد وأخزى؛ تذرعوا بحجج واهية وتعلات خاوية؛ جاري الذي كانت آصرة تسري وعاطفة تحنو أغلق بابه؛ وآخر ابن خال سدر في غيه وانطوى كما ورقة يابسة ذرتها الريح في يوم عاصف؛ وشاهد زور أحسب أن إحساني إليه قد يدفعه لقول الحق لكن نفوس مترعة بالشر أتخمت ثم أردت؛ فشاء الله أن يكون شاهد العقد من غير بني عمي من جهر بالحق بعد أن تخاذل ونكص على عقبيه الذي ظننته يقف موقف الرجال.